مفهوم الخفة والثقل في المدونة الصوتية العربية

The Conceptual Field of Lightness and Weight in Arabic Phonology

تاريخ الارسال:.2019/06/07. تاريخ النشر20 / 06 / 2019

ابراهيمي بوداود المركز الجامعي أحمد زبانة – غليزان

الملخص:

إن المتأمل في صنافة المستعمل من المصطلحات في الدراسات الصوتية العربية، يقف أمام تنوع استعمالي لا متناهي من **المتقابلات اللفظية** التي تداخلت مفاهيمها، وأضحت ترتد بحمولتها الدلالية إلى حقول معرفية مغايرة لتلك التي نشأت في أحضانها، كما بقي الغموض يكتنف البعد الوظيفي والاستعمالي لمصطلحات أخرى، بخاصة تلك التي اعتد بها القدامى في صناعة القاعدة والمعيار اللغوي الصارم الذي ضبط المستويات اللسانية بدءا بالنظام الصوتي والإفرادي ومن ثمة التركيبي، على نحو الخفة والثقل، والمخرج، والأصل والفرع، والوزن والإيقاع، والصوت والحرف. ومن هنا، فقد تولدت الحاجة لضرورة استحداث توجه تصوري معضود بآلية إجرائية تشتغل على اقتفاء أثر هذه التغيرات المفاهيمية وتتكشف تجليات تأثيراتها عبر تعاقبية تطور المبحث اللغوي العربي، كما تتغيا في الآن ذاته فك مواطن اللبس الحاصل وإزالة الغموض عنها، وقد عمدنا في هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مصطلحي الخفة والثقل وذلك لتردد المصطلحان في أكثر من موقف لساني بأبعاد دلالية متباينة تدعو إلى التمحص والتدقيق.

كلمات مفتاحية: الصوت.، الصوت اللغوي.، الحرف.، الجهد.

Abstract:

The Conceptual Field of Lightness and Weight in Arabic Phonology

Any reflection on a notional taxonomy, previously used through Arab phonetic studies, is immediately challenged by the diversity of infinite uses of divergent concepts that overlap and interfering, tending, in short, to confine themselves by the semantic charge they convey in gnoseological fields other than those in which they originated, and by the ambiguity which restricts the functional and usable dimension of other concepts, especially those which the precursors have failed to establish as levers of the construction of the linguistic norm with all the necessary rigor allowing them to codify language levels, starting with the phonetic and lexical system, to reach the semantic level, and this, like the Légèreté et lourise, Point of articulation, Phoneme and Grapheme, Principal and accessory, Rhythm and cadence. As a result, the need has arisen to lay the ground work for a new conception supported by an operative device capable of decapitating the signs of these conceptual variations and of

elucidating its effects manifest through the historicity of the Arabic linguistic discourse, thus tending to get rid of confusion and to avoid ambiguity.

As such, we have set ourselves, through this essay, to bring light on the notions of lightness and heaviness and this because of the strong recurrence of the two notions in more than one respect, and their semantic scope nuances that invite more depth and precision.

keywords

The sound ; the concept ; the phoneme ; the grapheme ; acoustics.

تصدير:

في غمرة التشافع المعرفي الذي يعرفه التوجه اللغوي العربي عبر مسلك الحداثة والتجدد ينحو صوب إعادة هيكلة الجهاز النحوي العربي وفق رؤى استحدثتها المناهج اللسانية التي انفتحت منعطفات فكرية كبرى خصت المبحث اللساني، حظيت الدراسة الصوتية بالقسط الأوفر من الاهتمام باعتبارها المستوى القاعدي الذي ينضد لأكثر الظواهر اللغوية عبر المستويات اللسانية .

ولئن كان المنهج الوصفي الذي خصه العرب القدامى بهذا المستوى قد أتى أكله وأتاح لهم مكنة الإلمام بأكثر الجوانب العلمية التي ينهض عليها الدرس الصوتي بتفريعاته الفيزيائية والفيزيولوجية من خلال صنافة المخارج والأوصاف إلا أن ما شهده حقل الصوتيات من وثبات معرفية وعلمية هامة تساوقا وإفرازات التطور التكنولوجي الذي ارتهن إلى سندات التحاليل المخبرية لمادة الصوت اللغوي؛ حيث أفضى ذلك إلى جملة من النتائج اليقينية التي صوبت بعض المفاهيم التي اكتنفها اللبس واللغط، بخاصة تلك المفاهيم التي تعلقت بكيفية حدوث الصوت اللغوي وكيفية تشكله، ومن ثم تأثيره على الأنساق الملفوظة لسلاسل الكلام والخطابات المنطوقة.

فحينما أسس الخليل بن احمد الفراهيدي لحفرية المعجمية الصوتية العربية الوارفة المعاني والمؤديات، على نحو المخرج والمدرج والحيز والحركة والسكون والهمز والوزن والبحر، التي امتاحت من عبقريته العلمية وملكته اللغوية لترسي مبادئ مسطرة الدرس الصوتي، حيث هيأ بذلك لمرجعية تقعيدية ذلّلت مسالك البحث الصوتي لمن جاء من بعده؛ غير أن هذه المسالك لم تخل من مظاهر الإبهام والارتباك التي لازمت الكثير من المسائل الصوتية، بخاصة بعد بلوغ الدرس الصوتي ناصيته وعمد علماء الصوت العرب إلى الغوص في أغواره بغية مطاولة ومباشرة القضايا الأكثر تعقيدا ودقة. في محاولتهم التبرير لجملة الوظائف التي تؤديها العناصر الصوتية الصغرى عبر انساق البُنى اللغوية، والوقوف على العلاقات القائمة بينها وبين عناصر باقي المستويات اللسانية.

وعبر هذا المأخذ، انفتح الدرس الصوتي العربي في القرنين الثالث والرابع للهجرة على ابستيمية معرفية متنائية المرامي، بخاصة مع أعمال سيبويه وابن جني في الكتاب والخصائص والمحتسب وسر صناعة الإعراب، التي وصفها المستشرقون ويتصدرهم هنري فليش Fleich, P.H- وبراڤمان M. Bravmann -جيرار تروبو Tropeau Gerad بأنها الأنموذج النحوي الأكثر نضجا واكتمالا؛ مقارنة بما عرفه هذا المبحث في المدارس

اللغوية السابقة عند الهنود والإغريق، وذلك بالنظر إلى كثافة المفاهيم وتراكمية الشروح والتعاليل التي شملت موضوع اللغة.

وفي ضوء هذا الزحم والتعدد المفاهيمي، الذي عرض فيه الأوائل إلى مصطلحات ومقابلات كثيفة، بغية لتدليل لظواهر اللغة، كان من الطبيعي أن تبرز ملامح التوافق والائتلاف في بعضها، وأن تظهر مواطن الاختلاف والتباين في بعضها الآخر، نتيجة اختلاف في الرأي أو تفاوت في التصور. وإذا كان التباين الذي لحق بكلية اللغة لم يبلغ حدود إحداث الخلط في مستهل نشوءه وصولا إلى القرن الرابع للهجرة، فإن عامل التناقل والتطور المعرفي الذي عرفته علوم العربية بعد ذلك، كان له الأثر الواضح في تحوير الكثير من المصطلحات اللغوية، مما أدى إلى التباس في ضبط وتحديد مؤديات الاستعمالية والاصطلاحية، وعلى سبيل المثال لا الحصر،"حينما يتحدَّث ابن جنِّي عن المقطع[1] الذي كان يدلل به إلى المخرج، أو الموضع الذي يعترض فيه الصَّوت لعضو النطق (point d'articulation)، فالمقطع عند من جاء من بعده بدءا بالفرابي وصولا إلى ترجمات المحدثين لمصطلح -Sylabe- هو تجمع لكتل فونيمية أو صوتية حول صائت واحد.

ومن صلب هذا التكوثر المفاهيمي، فإن المتأمل في صنافة المستعمل من المصطلحات في الدراسات الصوتية العربية، يقف أمام مشتركات لفظية تداخلت مفاهيمها، وأضحت ترتد بحمولتها الدلالية إلى حقول معرفية مغايرة لتلك التي نشأت في أحضانها، كما بقي الغموض يكتنف البعد الوظيفي لكم هائل من المصطلحات الأخرى، بخاصة تلك التي اعتد بها القدامى في صناعة القاعدة والمعيارية الصارمة للنظام الصوتي والإفرادي، ومن ثمة التركيبي على نحو: الحرف والصوت، والحركة والمد، والتماثل، والمخالفة، والجرس، والانسجام، والحسن، والقبيح، والأصول والفروع، والخفة والثقل، والعلل، والعامل والمعمول، والوزن، والكم. ومن هنا، فقد تولدت الحاجة لضرورة استحداث توجه تصوري معضود بآلية إجرائية تشتغل على اقتفاء أثر هذه التغيرات المفاهيمية وتتكشف تجليات تأثيراتها عبر تعاقبية تطور المبحث اللغوي العربي. كما تتغيا في الآن ذاته، فك مواطن اللبس الحاصل وإزالة الغموض عنها.

1. في مفهوم الخفة والثقل

انبرى ابن فارس في توضيح البعد المفاهيمي لمصطلحي الخفة والثقل إلى اعتماد قرينة الضدية، ولعل أخذه بمقياس العدد، إشارة إلى الكثافة والعبء والحمل الذي تفضيه الكثرة عكس القلة، فقد جاء في معجم مقاييس اللغة أن «الثاء والقاف واللام أصل واحد يتفرع من كلمات متقاربة، وهو ضد الخفة، ولذلك سمي الجن والإنس الثقلين، لكثرة العدد»[2]، وذات المسلك الإجرائي،اعتده ابن منظور في شرحه للمفهوم ، قائلا «الثقل نقيض الخفة، والثقل مصدر الثقيل»[3]، فكلاهما ارتهن إلى الإحالة على الضد (الخفة) لغرض التبيان، التي يُذكر في شأنها بأن «الخاء والفاء أصل واحد، وهو شيء يخالف الثقل، يقال خف الشيء يحف خفة،وهو خفيف وخفاف»[4].وجاء في الذكر الحكيم ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾[5]، تقابلها الآية ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾[6] وفي القرآن الكريم أكثر من شاهد على مقابلة التضاد للفظتين، وورد المصطلح أيضا في قوله ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[7] والتثاقل في الآية بتفسير الطبري، يأخذ مؤدى لزوم الأرض والمسكن والجلوس، نفورا وتجنبا للجهاد في سبيل الله، حيث يتشاكل معنى التثاقل مع مدلول التباطؤ والتأخر في الحركة.

1.2 مفهوم الثقل عند اللغويين القدامى:

التفت اللغويون القدامى من جمهور النحاة إلى ظاهرة الخفة والثقل، ضمن أنساق النظام النطقي، وتنبهوا إلى ما تؤديه هذه الظاهرة من تأثير في الكلم. من منطلق أن الثقل مظهر كلامي يوحي بالصعوبة والعسر، وعكسه الخفة التي تسم لليسر والسلاسة والاستحسان، وهاهنا، نجد سيبويه" يبين الثقل في صورة الشيء المكروه الذي تنفر منه الطباع وتتجنبه النفوس»[8]، باعتباره مظهرا حسيا وانطباعيا غير مرغوب عند السامع كما المتكلم، وذلك لما يجمعه الثقيل من تراكم صوتي وكثافة تلفظية تدفع إلى الإطالة في اللفظ وتضفي حس العيّ والبكي والحصر على المنطوق، فالنكرة مثلا أخف عند سيبويه من المعرف لأنَّها أشدُّ تمكُّنا وهي الأسبق ثمَّ تدخل عليها ما تُعرَّف به. ويقول أيضا : "واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، وهي أشد تمكّنا، فمن ثم لم يلحقها تنوين، ولحقها الجزم والسكون، وإنما هي الأسماء، ألا ترى أن الفعل لابد له من الاسم، وإلا لم يكن كلاما، والاسم قد يستغني على الفعل، تقول الله إلهنا، وعبد الله أخونا[9]،حيث ينبري سيبويه إلى عرض صنافة تراتبية من الأثقل إلى الأخف في كلام العرب، باعتبار الاستعمال اللغوي والسند النحوي، ويحذو حذوه في ذلك نحاة آخرون حيث يذهب الكسائي والفراء إلى جعل الفعل أثقل من الاسم، والاسم أخف من الصفة، لأنَّ الصِّفة ثقلت بالاشتقاق وبالحاجة إلى الموصوف [10]. فتقلبات الأبنية الصرفية التي تؤول إلى الزيادة في الصيغ الإفرادية تضفي صفة الثقل، قياسا بالكم الصوتي المضاف للجذر. وقد أشار إلى ذلك ابن جني حين تحدث عن خفة الفعل دون الرباعي والخماسي، وخفة الفتحة دون الضمة والكسرة، وذكر أن العرب تميل إلى التخفيف والبعد عما يستثقل على ألسنتهم[11].

والمتأمل في مجمل الأوصاف التي ألحقها القدامى لظاهرة الخفة والثقل يستشف دون عناء، أن مؤداها تراوح بين البعد المادي الذي يدلل لقرينة الوزن في نحو الزيادة والإنقاص، وبين البعد الحسي الذي يحيل إلى الجهد، والاستكراه، والقوة في الكلام. ولئن كانت الظاهرة قد شملت عندهم جل أبنية الكلام، حيث عُلل لها عبر المستويات اللغوية الصرفية والتركيبية، فإن الأصل فيها هي الهيئة الأدائية للنطق، ومن ثمة الأثر السمعي الذي تحدثه التشكلات الصوتية للبنية المنطوقة.

2. الخفة والثقل في المستوى الصوتي:

إن الحديث عن الخفة والثقل في مدار النظام الصوتي، أداءً وسماعا، لا تخرج عن نطاق استكناه البعد الفيزيائي للظاهرة في أدق تمثلاتها، وقد أرجع ابن سنا سبب حدوث الظاهرة إلى «حال التموج في نفسه من جهة اتصال أجزائه وتماسها أو بسطها ونحتها فيفعل الحدة والثقل»[12]، ومرده في ذلك إلى الصفة الفيزيائية لهيئة الاضطراب الذي يتولد إثر حدوث الصوت، الذي يؤدي بدوره إلى تحديد طبيعة الأمواج الناتجة، التي تسم لهيئة الصوت بين الخفة والثقل أو الحدة والغلظة، والقوة الضعف. وذكر مكي بن طالب أن: "الحرف القوي ما تركب من صفات أو خصال قوية وأخرى ضعيفة غير أن القوية هي الأكثر[13] وجمعها

في جملة الأصوات التي اتّسمت "بإحدى هذه الصفات أو أكثر، وهي: الجهر، والشدة، والإطباق، والاستعلاء، والتفخيم، والصفير، والتكرير والغنّة[14]، وهي صفات صوتية وتجتمع فيها سمات العسر في النطق، ومضاعفة الجهد أثناء الأداء، كونها حالات تعتمد الضغط والتضييق على العضو كما تعتمد تعطيل وحبس الهواء كما النَفس.

ولم يحد ابن الجزري في كتاب التمهيد، عما ذهب إليه المكي قائلا :"أما المهموس فهو أضعف من المجهور، وبعض الحروف المهموسة أضعف من بعض، فالصاد والخاء أقوى من غيرهما، لأن في الصاد إطباقا وصفيرا واستعلاء وهن من صفات القوة والخاء فيها استعلاء وقال في المجهورة وهي أقوى من المهموسة، وبعضها أقوى من بعض على قدر ما فيها ن الصفات القوية، وفي قوله "فالجهر والشدة والإطباق والصفير والاستعلاء من علامات القوة، والهمس والرخاوة والخفاء من علامات الضعف[15]

أما ابن جني، فيرجع مسألة الخفة والثقل الصوتي إلى صفة الصوت، وتمثيلاته الصرفية المتمخضة عن موقع الحرف في الصيغة المفردة وعلاقاته الجوارية بباقي الصوامت ضمن بنية الكلم. وجاءت "الحروف الثقيلة عنده هي جميع الحروف ما خلا الحروف الخفيفة، وهي حروف الزيادة المنصوص عليها بـ (سألتمونهيا)، وحروف الزيادة بعضها أخف من بعض، وقد لا تطول المناقدة في خفة هذه الحروف ما خلا الهمزة، فأن لها الخفة وهي حرف شديد ثقيل".[16]

وههنا، يعزو الخليل مسألة الخفة والثقل إلى طبيعة التلفظ بالصوت، ونلفيه يدلل للظاهرة بالفوارق الحاصلة بين الحركات أو الصوائت، ونستشف ذلك فيما ذهب إليه مجيبا سائله حول الفرق الكمي بين الحركات قائلا: «أخف الأفعال عليك السمع لأنك لا تحتاج فيه إلى استعمال جارحة إنما تسمعه من الصوت وأنت تتكلف في إخراج الضمة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصوت، وفي تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت، فما عمل فيه عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد»[17]، فتوظيف عضوين بدل عضو واحد دلالة على ثقل المنطوق، وجهره دلالة على صواتته، وشدته دلالة على قوته.

وقد استفاض سيبويه في تبيان القرينة الخلافية بين الخفة والثقل على المستوى الصوتي في المجال الفيزيولوجي عبر صفة العسر وصعوبة النطق التي تكتسبها الصوائت العربية أثناء التلفظ، مشيرا في ذلك إلى خفة الفتحة في أثناء كلامه على تخفيف ما أصله التحريك بالسكون، موضحا أن أكثر ما يحتاج إلى التخفيف بالسكون المتحرك بالضمة والكسرة [...]وفي موضع آخر أشار إلى ثقل الكسرة قياسا على الفتحة وذلك في قوله لأن الكسرة أثقل من الفتحة فكرهوها في المعتل. وقال في ثقل الضم، الضمة في المعتل أثقل عليهم[18].

ويبدو أن سيبويه في شرحه قد عمد إلى توضيح مسألة الثقل من خلال حركية الانتقال من صائت إلى آخر عبر بنية الكلمة، من منطلق توصيف دقيق لما تؤديه أعضاء النطق المسؤولة عن الحركات يتقدمها اللسان، ويمكن التمثيل لذلك على النحو الآت:

فالانتقال من رفعة اللسان في الأعلى إلى النصبة المسطحة يسير، والأيسر منه الانخفاض به إلى الخفضة، كما أن الانكسار من النصبة غلى الخفضة سهل وأمكن للنطق. وبالمقابل من هذا، فإن الانتقال من الخفض إلى النصب عسير والأعسر منه التحرك من الكسر إلى الرفع، واليسر والعسر هنا، بمفهوم الثقل والخفة، وفي ذات الرأي، نجده يقول «أنت لو رمت أن تأتي بكسرة أو ضمة قبل الألف لم تستطع ذلك البتة، وكذلك لو تكلفت الكسرة قبل الواو الساكنة المفردة، أو الضمة قبل الياء الساكنة المفردة لتجسمت فيه مشقة وكلفة، لا تجدها مع الحروف الصحاح، وذلك نحو فِعْل من القول والطَّوْل، وطِوْل تستثقل ذلك فتقلب الواو إلى الكسرة قبلها ياء، فتقول قِيل وطِيل، وقد قالتها العرب»[19]. ومرد الثقل في أداء الحركة عائد إلى الطبيعة الفيزيولوجية للوترين الصوتين، أو إلى العوامل الفيزيائية الناتجة إثر عملية الانتقال من حركة إلى أخرى، حيث أُلحق وصف الحدة مقابل ارتفاع الصوت الذي يؤديه الوتران الأقل سمكا والأقل طولا كما عند الطفل أو الأنثي، وذلك أن «اختلاف أوزانها وطولها ونسب الشد في مكوناتها، وتجاويفها وكتلها وامتدادها وشكلها وخفتها وثقلها. وعلى هذا فالجسم الثقيل يتذبذب بأقل حالة أبطأ من الجسم الخفيف»[20] وتُلحق صفة الثقل بالصوت الذي يؤديه الوتران الصوتيان الأكبر سمكا وغلظة، أو الأكبر طولا كما عند الذكر البالغ، ونجد الفارابي يستعين بهذا الوصف في التمثيل لحال وطبيعة الأصوات الموسيقية التي تؤديها الآلات الوترية.

كما أن التوصيف الثاني الذي يشمل العوامل الفيزيائية الناتجة إثر الانتقال من حركة إلى أخرى، فيخص حركية نقاط التضييق في مجرى الصوت عبر الجهاز النطقي أثناء النطق بالصائت، وهي عوامل تتسبب في حدوثها حركتي اللسان والشفتان، وذلك بدلالة الخاصية الفيزيائية للأمواج التوافقية F1; ondes harmoniques F0 لكل حركة، باعتبار الكمية الصوتية، والبعد المسافي لنقطة الارتكاز (الحنجرة- الحنك الخلفي)، وكذا الضغط الناتج عند مرور الزفير.

أما في قسم الصوامت، فقد اجمع جمهور النحاة أن سبب الثقل والخفة الذي يصحب التلفظ بالسواكن مرده إلى التقارب المخرجي، ويتجلى ملمح الظاهرة بوضوح في العلاقات الجوارية التي تحكم السواكن في خطية المنطوق، حيث يُستشعر تنافر وتآلف الأصوات فيما بينها، فتنتهي إلى ما نحسبه استحسانا أو استهجانا سمعيا، نتيجة الأثر الفيزيائي effet acoustique، والوقع الذي يحدثه في أذن المتلقي، ومن أمثلة ذلك في مأثور العرب، وصف ابن يزيد الأنصاري للأسد بين يدي عثمان بن عفان، فقد قال وهو يصف خروج الأسد عليهم في الواد: "فضرب بيديه فأزهج وكشر، فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم أشدق كالغار الأخوق، ثم تمطّى فأسرع بيديه، وحفز،[...]ثم أقعى فاقشعر ثم مثل فاكفهر، تم تجهم فزبأر، [...] كان ضخم الجزارة، فوقصه، ثم نقضه نقضة فقضقض متنيه فجعل بلغ في دمه، فكر مقشعرا،[...]ثم همهمَ فقرقر، ثم زفرَ، فبربر، ثم زأرَ فجزأر [...] واصطكت الأرجل، وأطت الأضلاع [...]فصاح به عثمان: أسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين"[21]

وقد ألفينا الجاحظ ينضد لذات الرأي في باب سبك الألفاظ ورصفها، في قوله: "وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلْساً، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة

ورطبة مواتية سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة،وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.[22] وعلة الخفة والثقل هنا حسب ما ذهب إليه الجاحظ وسيبويه في قوله: "اعلم أن الشيء قد يقل في كلامهم، وقد يتكلمون بمثله من المعتل كراهية أن يكثر في كلامهم ما يستثقلون"[23]، مرده إلى الإجهاد الذي يلحق مواضع النطق إثر التتالي النقطي للسواكن المتقاربة، وهو تعليل صائب لظاهرة فيزيولوجية في مجملها phénomène articulatoire - استند على الوصف الأدائي للصوت اللغوي لدى الناطق.

وفي رأينا فإن السبب الجوهري للثقل في هذه الحال بصفته مظهرا مستقبحا، والخفة باعتبارها حسا صوتيا مستحسنا، لا يقف عند حدود التوصيف الفيزيولوجي، وإنما يعزى إلى افتقاد الصوتين المتجاورين المتقاربين في صفة، أو المتجانسين في المخرج القيمة التمييزية والخلافية للفونيمين المتتاليين، حيث يتولد إثر ذلك إجهاد على أذن السامع في نقلها للإشارة السمعية الخاصة بكل صوت، ما يؤدي حتما إلى عسر وصعوبة في اكتمال وظيفة التمييز بين الحرفين أو الفونيمين على مستوى تشكل الصورة الذهنية والإدراك، وهي ظاهرة فونولوجية بامتياز -phénomène phonologique ، ويمكن أن نمثل لها بالمثال الذي تجسده الخطية الصوتية في البيت الشعري :

وقبرُ حربٍ بمكانِ قفرٍ وليس قربَ قبرُ حربٍ قبرُ

من الواضح أن تتابع السواكن المتقاربة نطقا، وتجاورها في البيت، يؤدي إلى عسر في نطقها، وقد استدل الجاحظ في شرحه لملح الاستثقال في كلام العرب، بذات البيت، قائلا:"ولمَّا أرى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك"[24]. حيث أن الثقل الظاهر في التلفظ بمفردات وصيغ البيت سببها التماثل الحاصل في الأصوات المكررة /ر/ و/ق/ و/ب/ والتقارب الحاصل في الصفة بين /ق/ /ب/ وهما صوتان يشتركان في الجهر والشدة، ويشتركان أيضا في الصفة التمييزية باعتارهما حرفي قلقلة ما يضعف من القيمة التميزية والخلافية التي يؤديها المخرج أو موضع الحدوث (الشفتان، واللهاة).

فلاحظ أننا لو قمنا بفصل ذلك التسلسل بفونيمات أخرى دون تغيير في دلالة البيت، على نحو حروف العلة مثلا، سيؤدي ذلك حتما إلى التخفيف من مظهر الاستثقال وينقل المنطوق إلى مرتبة الاستحسان السمعي، كأن نقول :

وقُبورُ حروبٍ بأماكنٍ قفرةٍ وليس قربَ قبور حروبٍ قبورُ.

حيث أدى توظيف حروف العلة، إلى إحداث وضوح سمعي يجلي القيمة التمييزية لكل حرف في مدارك العقل، إضافة إلى أنه يضفي على السلسلة الكلامية المتنافرة تلوينات نطقية متميزة تستعذبها الأذن، وتتقبلها النفس، لأنها تساهم في التخفيف من «حدة المقاطع الإيقاعية الناتجة عن تتابع الأصوات الساكنة، وتمنحها صدى موسيقيا يؤثر على إيقاعية الصوت الساكن ويفتح أمامه مدى أوسع، مما يساعد في إبرازه ووضوحه في السمع»[25].

التعليل المخبري لظاهرتي الثقل والخفة الصوتيتين:

أثبتت الأبحاث الأكوستيكية أن خاصية الصوت اللغوي الفيزيائية تحددها ثلاثة أبعاد رئيسة لكمياته الواصفة تُكتسب الصوت طابعه وهيئته المادية، وهي الأبعاد ذاتها التي يتحدد

من خلالها مفهوم الثقل والخفة للصوت اللغوي، باعتبارها جسما ماديا، ويمكن حصر هذه الكميات الواصفة في:

- **الشدة** INTENSITY ***وهي:*** «الصفة التي تميز بها الأذن الأصوات من حيث القوة والضعف أو العلو والانخفاض »[26]، وبتعبير آخر هي الطاقة الكامنة في الصوت، أو «الصفة التي تميز بها الأذن الأصوات من حيث القوة والضعف، والعلو والانخفاض»[27]

-درجة الصوت PITCH وهي سمة « تميز بها الأذن الأصوات من حيث الحدة والغلظة، وتتوقف على عدد الاهتزازات أو الذبذبات التي يصدرها الجسم المصوت في الثانية وهو ما يسمى بالتردد. فإذا زاد عدد الذبذبات في ا[28]لثانية، كان الصوت حادا دقيقا. وإذا قل عدد الذبذبات كان الصوت غليظا أو سميكا»[29] وأخذت هذه الخاصية تسميات عدة، عند علماء الصوت والفيزياء،كالاهتزاز، والتردد والتواتر.

زمن النطق Duration : وهو الزمن المحدد للتلفظ بالصوت اللغوي، ويعتبر معلم الزمن بعدا فاصلا في تحديد القيمة الخلافية للصوائت العربية.

نتائج البحث

تخلص الدراسة إلى جملة من النتائج الصارمة، التي تفصل في اللبس الحاصل في حصر المفهوم الاصطلاحي والبعد الوظيفي لظاهرة الخفة والثقل في المدونة اللغوية العربية، وبخاصة في الدرس الصوتي العربي نجملها في:

- اقترن مفهوم الثقل في الصيغة الإفرادية بمورفولوجيا الكلمة العربية وبنيتها
- أفضى توظيف مفهوم الخفة والثقل في المستوى الصوتي إلى تداخلات في سبب حدوث الظاهرة، وفي تحديد ماهيتها، ويمكن الفصل في أوجه التداخل على النحو الآتي:
- يقترن مفهوم الثقل بالحدة وغلظة الصوت إذا كانت العلة فيزيولوجية متعلقة بطبيعة الوترين الصوتيين من حيت السمك والثخانة.
- يأخذ الثقل مفهوم العسر وصعوبة النطق، إذا اقترن التوصيف بتقارب واتفاق مخارج الأصوات في السلسلة التلفظية.
- يُثار مفهوم الخفة والثقل في باب المقارنة بين الحركات العربية، حيث أن الضمة أثقل الحركات، ومرد التوصيف إلى الجهد الفيزيولوجي الذي تؤديه أعضاء النطق بالحركة.
- يتشاكل مفهوم الثقل مع ظاهرة التنافر الصوتي للفونيمات المتجانسة في خطية الكلم، وهو ملمح فونولوجي مؤداء فقدان القيمة الخلافية والوظيفة التمييزية للصوت اللغوي.

---

[1] - ينظر: محمد علي الخولي، ص 192، دار الفلاح للنشر والتوزيع. و عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط 1، 1998م ،ص 213،

[2] -أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة ،مج1، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1979، ص 382

[3] - ابن منظور، لسان العرب، المجلد1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1997. ط1. ص365

[4] - المصدر نفسه، ص 365،

[5] - سورة الأعراف، آية 8.

[6] -سورة الأعراف، آية 9.

[7] - سورة التوبة، آية 38.

[8] - شعبان عوض محمد العبيدي، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه، ط1، منشورات جامعة قاريونس،بنغازي، الجماهرية الليبية، 1999، ص 191.

[9] - أحمد عفيفي، ظاهر التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1996، ص 30

[10] - الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، ج1، تح، فائز ترجني، مط، دار الكتاب العربي، ط1، 1984. ص81

[11] - أحمد حسن حامد، قضية الخفة والثقل وأثرها في النحو العربي، ص55.

[12] - المصدر نفسه، ص10.

[13] - مكي بن طالب، الرعاية، ط2 ،تحقيق، د.احمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن 1984م، ص 116.

[14] - المصدر نفسه، ص 116.

[15] - ابن الجزري ، التمهيد في علوم التجويد، ص 97، عن محمد يحي سالم الجبوري، مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، 1971، ص 35-36.

[16] - إسراء عريبي الدوري، ابن جني ناقدا لغويا، دار أسامة للنشار - بغداد العراق، 2011،ص 212.

[17] -أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو،ج1 ص 202،راجعه وقد له الدكتور فايز ترجيني، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت لبنان 1404هـ، 1984.

[18] عن محمد يحي سالم الجبوري، مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، 1971، 103.
[19] - أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب ،ج1، تحقيق محمد حسن محمد حسن اسماعيل، أحمد رشدي شحاتة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 2000، ص 34.
[20] -عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار الصفاء لنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1418هـ، 1998، ص 51.
[21]- جرجي زيدان،تاريخ آداب اللغة العربية،ج1، موفم للنشر، الجزائر 2007 ،ص82-83.
[22] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تحقيق حسن السندوبي، ط1 ، دار الفكر، بيروت ص67
[23]- أبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح : عبد السلام هارون ، مطبعة عالم الكتب، ج4.، بيروت، لبنان، ص 430-431.
[24] - عائشة محمد عثمان، ياسمين سعد الموسى، دور الجاحظ في الدرس الصَّوتي العربي مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 43 ، العدد ،2،2016، ص846
[25] -ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة وتحقيق أحمد عبد الله فرهوه، دار القلم العربي، سورية ، ط1، 1997، ص 156.
[26] - كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل، ص 40-41، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، 1412-1992. وينظر J.Laurand , enseignement secondaire –programme 1947 de physique classe mathématique et science expérimentale
[27] - سامي عياد، كريم زكي حسام الدين ، نجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة، انجليزي عربي، مكتبة لبنان، ط 1، 1997، ص 66،
[28] - نفسه
[29] - كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، مكتبة الأنجلومصرية ، ط1، 1412هـ، 1992م ص 39

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

1- أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح : عبد السلام هارون ، مطبعة عالم الكتب، ج4.، بيروت، لبنان.

2 -أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة ،مج1، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1979.

3- أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب ،ج1، تحقيق محمد حسن محمد حسن اسماعيل، أحمد رشدي شحاتة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 2000.

4-أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو،ج1 ،راجعه وقد له الدكتور فايز ترجيني، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت لبنان 1404هـ، 1984.

5-ابن الجزري ، التمهيد في علوم التجويد، عن محمد يحي سالم الجبوري، مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، 1971.

6- ابن منظور، لسان العرب، المجلد1، ع1. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1997 . ط1.

7-أحمد ابتسام حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة وتحقيق أحمد عبد الله فرهوه، دار القلم العربي، سورية ، ط1، 1997.

8- أحمد عفيفي، ظاهر التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1996.

9 - إسراء عريبي الدوري، ابن جني ناقدا لغويا، دار أسامة للنشار ـ بغداد العراق، 2011.

10- -الجاحظ- البيان والتبيين، ج1.

11- جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، ج1، تح، فائز ترجني، مط، دار الكتاب العربي، ط1، 1984.
12- جرجي زيدان،تاريخ آداب اللغة العربية،ج1، موفم للنشر، الجزائر 2007 .
13- سامي عياد، كريم زكي حسام الدين ، نجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة، انجليزي عربي، مكتبة لبنان، ط 1، 1997.
14 - شعبان عوض محمد العبيدي، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه، ط1، منشورات جامعة قاريونس،بنغازي، الجماهرية الليبية، 1999.
15 - عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار الصفاء لنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1418هـ، 1998.
16- كريم زكي حسام الدين، الدلالة الصوتية، دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، 1412-
17 - محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع. و عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط 1، 1998م
18- محمد يحي سالم الجبوري، مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، 1971.
19 - مكي بن طالب، الرعاية، ط2 ،تحقيق، د.احمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن 1984م، ص 116.
20. عائشة محمد عثمان، ياسمين سعد الموسى، دور الجاحظ في الدرس الصَّوتي العربي مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 43 ، العدد 2،2016.
21. وينظر J.Laurand , enseignement secondaire –programme 1947 de physique classe mathématique et science expérimentale